

الشرق العربي واوروبا

- ٢ -

في القرن التاسع عشر^(١)

لتقديراً وزيادة

عصفت بفرنسا في أواخر القرن الثامن عشر الثورة الفرنسية التي أقرت حقوق الانسان ، ونشرت فكرة الحرية في أوروبا ، وهدمت الطغ والظلمان ، وخلصت نابليون وهذا ، لما عجز عن القضاء على جميع حصومه في أوروبا ، فأدى في السنة ١٧٩٨ حملة الى مصر فاحتلها ، ثم سار ، بغية الاستيلاء على سوريا ، الى عكا . لكن أسوار عكا وحاميتها قضت على آمال نابليون في الشرق ، ولم يلبث بعد عودته الى مصر أن رحل الى فرنسا . وقد تراجع النفوذ الفرنسي السيامي مع صاحبه . لكن احتلال نابليون لمصر أيقظها من نوم عميق كانت تنامه في وسط رمال الصحراء

ومنذ سنة ١٨٠٠ بدأ الشرق العربي يقبضه حيازه ويتحسس مواضع الضعف في نفسه . وهو كما ازداد الغرب إقبالاً فيه ازداد هو تنبهاً وبقظة . وكانت أول بوادر هذه اليقظة قيام محمد علي باشا في مصر ، وإصلاح حياتها الاقتصادية ، والاساسية ، وإهتمامه بشعر الحارث والعلم عن طريق المبعوثات الكثيرة الى البلدان الأوروبية وخصوصاً فرنسا وطمح محمد علي باشا في أن ينشئ مملكة قهريه تقم سوريا كلها بعد أن دانت له الحجاز فوجه ابنه ابراهيم باشا الى الشام فاحتلها ، ووصل آسيا الصغرى ، وجيوش السلطان محمود الثاني تراجع أمامه ، ولكن الدول الأوروبية لم تكن راضية عن ذلك فوجهت الى ابراهيم باشا انذاراً بحروب الانسحاب الى مصر . فترجع بعد حكم دام عشر سنوات في سوريا ويخوننا وقد وصلنا الى أواسط القرن التاسع عشر ، أن تعرف بكلمة موجزة الى مرفف الدول الأوروبية عامة من الشرق العربي ، قبل أن نتقدم خطوة أخرى

كانت انسا تقف في وجه مضايق روسيا به نول دون وصولها الى الاستانه . وروسيا كانت تطمع في ذلك ، منذ زمن بفرس الأكبر كما مر بنا ، وكانت تتخذ حماية الارنود كس

(١) سلف من عنوان الغائب لاول من هذا المقال المذكور في منتصف اكتوبر ١٩٥٢ بعد عشر وصحة « الشرق العربي واوروبا » في مشتمل القرن التاسع عشر .

من رعاية الدولة العثمانية حجة للتدخل الفعلي في الأمور الداخلية . وكانت بذلك تنافس فرنسا التي اتخذت حماية الكاثوليك حجة . وفرنسا كان يهمنها أن تروج تجارتها في الشرق ولذلك كانت تسمى للدولة العثمانية العمر الطويل . أما انكسارها ، فقد كانت خريفها ان اظن في مأمن من كل طارئ ، لذلك كانت علائقها بالدولة العثمانية وثيقة . ورغبتها في أن يبقى الخليج الفارسي والمدن والموانئ السورية تحت اشراف العثمانيين كان سبباً أساسياً في الحد من توسع ابراهيم باشا لما توغل في جسم الدولة

لقد كان من أثر حكم ابراهيم باشا في سوريا أن فتحت هذه أبوابها للعدنية الغربية ، فان البشيريين الفرنسيين الذين كان لهم في سوريا مثلاً تاريخ طويل يرجع الى القرن السابع عشر ، قويت أعمالهم في القرن التاسع عشر ، وذلك لأن الاميركيين جاءوا الى البلاد في أوائل ذلك القرن أيضاً . وقد زاد نشاط الفرنسيين بعد حكم ابراهيم باشا ، ومع ان الاميركيين قصروا همهم على بيروت فان الفرنسيين توغلوا في لبنان ودمشق وحلب . ولا شك في أن مهلم يادىء ذي بدء كان بشيرياً . ووجه الفريقان الغمّة الى فتح المدارس وبكى أن تكون الجامعة الاميركية والجامعة اليسوعية في بيروت من آثار هؤلاء القوم ، دع عنك المدارس القديمة التي كانت لها حسناتها وسيئاتها أيضاً . ولعلّ القصة التالية مما يدلنا على درجة المنافسة بين الفريقين ذلك ان الدكتور فاندريك أحد كبار مؤسسي الجامعة الاميركية في بيروت كان في طريقه الى قرية لبنانية فلقية صديق وسأله عن فايته من تلك الزيارة فقال الدكتور (اني ذاهب لافتح مدرستين) . فقال الرجل ضاحكاً : (ألا تكفي مدرسة واحدة يا دكتور ؟) . فأجاب فاندريك : (متى فتحت أنا مدرسة فان الجمعية الكاثوليكية ستفتح مدرسة أخرى في نفس القرية) وليس من شك في أن حوادث الستين في لبنان ، وما أدّت اليه من تدخل الدول الأجنبية في شؤونه حملت الى لبنان أثراً غريباً لم تكن الدولة العثمانية ولا سكان البلاد العربية يريدونه له . على انه يجب ان نذكر ، ونحن نتحدث عن خيرات العلم ، المنافسة السياسية . فقد رأينا فيما تقدم من هذا البحث ، ان انكسارها وفرنسا كانتا تعينان بالطريق الشرقي الى الهند سواء أطريق القزاق كان ذلك أم شريق السويس . وانه مما يبعث على الأسف ان لا يتسع لنا المجال لدرس بعض هذه التقارير التي قدمها الكتّاب والتجار والرجال المعسكريون من الفرنسيين والانكليز عن هذين الفريقين والمنافسة بينهما . فان مجهودهم خدم العلم خدمة جلي . ومع ان همة الانكليز كانت قد انصرفت الى الطريق العراقي ، فانهم لما رأوا عناية الفرنسيين بالطريق المصري تزداد وأدركوا انها أقصر قليلاً ، شلوه هم أيضاً بعظمهم . وفي هذه الرسالة التي كتبها توماس وغوردن سنة ١٨٣٧ دليل على ذلك إذ قال :

« قد يترامى لبعض ان آرائي بخصوص الطريق المصري الى الهند بعيدة عن صحة العوالم

ولكن الواقع نبي مضمّن إليها بعد تخرّجها لخالي سنوات متوالية . ومن يقرؤها قرار حتى أرى
مصر طريق الهند)

ولا يفرون عن النساء ان اوروبا في ذلك الوقت كان عليها ان تفتش عن أسواق جديدة
لمصنوعاتها التي زادت بسبب الانقلاب الصناعي الذي غير أساليبها في الأعمال - الاتجار .
ومن هنا قويت فكرة حضرة قناة قنات البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر لتسهيل النقل
البحري . هذه الفكرة ناصرها الفرنسيون وعارضها الانكليز بادية ذي بدء ، ولما بدى
العمل بها فعلاً فكر الانكليز بمد خط حديدي من الاسكندرية الى الخليج الفارسي على ان
يحاذي سمر القرات بقدر ما يمكن . ومن ثمة كانت عناية الانكليز بتفصي أخبار التجارة
ومح الصحراء السورية . وهاكم وصفاً مكانة حلب التجارية كمنه سائح انكليزي في سنة
١٨٤٣ (اي بعد انسحاب ابراهيم باشا بقليل) ، وينا منزلة البلاد السورية وغيرها في التجارة
« في حلب أربعة بيوت تجارية بريطانية ، وتجارة حلب في الدرجة الأولى مع
بريطانيا وقيمتها نحو أربعة أضعاف قبة التجارة الفرنسية . والاقشة هي بين الواردات
الرئيسية ، ولا سيما الاقشة الحر . وتصدر حلب الى بريطانيا المصنوعات واليدائع الهندية التي
تأتيها عن طريق الهند . وقد انضمت حلب تجارة طرازون وانزيمر . والبيوت التجارية
البريطانية في حلب هي سبب آراء كثيرين من أشرف انكليترا . لكن حلب ليس لديها
ما تصدره من مصنوعات محلية ، بدل ما يستهلكه السكان في سوريا الشمالية . لذلك فانهم
يدفعون أثمان البضائع تقدأ . وهذا سبب فلة النقود بين اديهم . وقد عيت الحكومة
التركية بانشاء بنك منظم يصل الاستانة بسوريا ، ومركزه في شمال سوريا حلب . وقد ساند
هذا الاصل التجاري والمخاربات اللازمة لذلك »

وبينا كانت انكليترا تهتم بالنظر في العراق وتفتكر بمد سكة حديدية من
الاسكندرية الى القرات ثم الى البصرة والخليج الفارسي ، كان ده ليس الفرنسي يحاول
فتح قناة قنات البحر المتوسط بالبحر الأحمر . وقصة هذه القناة التي اعرها الآن باسم
قناة السويس من أروع قصص القرون الحديثة . ذلك ان الفرنسي ، الباب ، فردينا بد ده
ليس ، كان يعرف مصر معرفة صحيحة ، وكان حلم شبابه ان يرى ماء البحرين متصلاً
ببحر الصحراء ، ~~في~~ السفن من الواحد الى الآخر . وقد تقلب في مناصب سياسية عديدة
لكن حلم الشباب ~~في~~ ، فلما اتمرت العمل في سنة ١٨٤٩ . عاد الى التفكير بمشروعه
الكبير . وكان يعرف في اياس باشا والي مصر يعرض المشروع وان الحكومة البريطانية تقاومه
في لندن وفي استانبول بما كان هذا من نفوذ قوي لدى الباب اعاني . لكن ده ليس كان مؤمناً
بانه سيجمع وغرضه منه كان تجارياً حصاً . فقد سعى للحصول على رأس مال للشركة ، في

جميع العواصم الاوربية وفي الشرق بدون ان يفترق بين فرانسى وغيره. ولما تولى عباس باشا وخطه محمد سعيد باشا ، زالت احدى الصعوبات الكبيرة . ذلك لان محمد سعيد باشا كان صديق ده لبس منذ الصبا ، وكان مؤمناً بمقدرة صديقه موافقاً على فكرته

فلما تولى محمد سعيد باشا حكم مصر أسرع ده لبس الى مصر لتنهضته ، فاستقبله الوالي استقبالاً فخماً ، وقد وصف ده لبس نفسه حديثاً مع محمد سعيد باشا عن قناة السويس ، بعد وصوله بمدة قصيرة ، قال : «ألم الوالي عيى وقد كنا في الاسكندرية ان ارافته في زيارته المقبلة الى القاهرة ، فانقدت الامر . وفي الطريق كنا لضرب خيمنا فوق رمال الصحراء يرقب كواكب السماء . وفي صباح الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٥٤ كنت أقرب أشعة الشمس الاولى تنقلب على ما تبقى من جيوش الظلام المنهزمة ، وتوشى العجر الجليل بخيوط من النور ، وكان قلبي يفتتح بين أضالعي لاني كنت أفكر بحلم حياتي ، واذا الوالي نفسه يتحدثني فيردني من الحلم الى الحقيقة . . . لكن حلمي بقي رقيقى النهار بضوله فلما قاربت الشمس الغيب ، شعرت كأن الساعة قد حانت ، وكنت الى جانب الوالي ، وكنا وحيدين . فتحدثت . . . لقد تجنبت التفاصيل ، وأشارت الى الأهم من المسائل وكنت مستعداً لكل شاردة وواردة ، ثابت الجنان ، رابط الجأش . وقد أصغى الوالي حتى فرغت ، ومسأل معترضاً ، فأجبت مفسراً . وبعد دقائق . قال الوالي : اني مقتنع بصحة دعواك وقابل آراءك ، سأعنى بالمسألة وتفاصيلها بنفسى ، ثق بي . . . ثم استدعى الوالي ضابطه العكريين وطلب إلي أن أشرح لهم المشروع بكامله » وكان هذا أكثر مما طمع به ده لبس . ولم يلبث هذا الحديث أن أصبح حقيقة واقعة وصدرت في نفس السنة (١٨٥٤) براءة من الوالي بمنح ده لبس امتيازاً لحفر قناة السويس وبدأ الرجل بإنشاء شركة لذلك ، ثم كان عليه أن يتقدم لجمع رؤوس الاموال اللازمة

كان موقف بريطانيا من المشروع العقبة الكأداء في طريق ده لبس . فقد قاومت في الدوائر المالية وفي وزارة الخارجية في لندن وفي عاصمة الدولة العثمانية : ذلك انها سمعت لدى الباب العالي لیتتم عن الموافقة على الامتياز الذي منحه والي مصر ، محمد سعيد باشا ، وبذلك يصبح لاحقاً . ومن يقرأ الأحاديث التي دارت بين ده لبس واللورد بالمرستون رئيس الوزارة البريطانية ، يرى صلابة الحكومة البريطانية وتشدها من جهة ويذكر ان السبب الحقيقي يعود الى خوف بريطانيا من وضع مشروع هذه مكانة بيد فرنسا . إذ ان هذا يعزز نفوذها في الشرق ، ويعرقل أعمال بريطانيا ويحد من نشاطها السياسي والاقتصادي . فقد قال اللورد بالمرستون لده لبس ما يأتي : « ايها السيد ده لبس ، اني ان أردت في اطلاعك على ما أخشاه . . . اني أحسن أن تضرب العلاقات التجارية والبحرية

البريطانية بسبب فتح طريق جديد. لأن فتحه يفتح لجميع الشعوب على أسواق يجرمان من كثير من الخواص التي تمنعها. وأما طرفك، بالإضافة إلى ذلك، التي كانت مفهومة من ناحية مستقبل فرنسا... لأنك لا تتفق بالخاص الأميراتور وصفاه سريره. «سمع ده لسبس رد رئيس الوزارة في لندن بعد أن كان قد اطلع على مساعي سفيره في الاستانة (الورد سترافورد دي روكليف) فأدرك ان الحكومة البريطانية تبذل جهودها في عرقلة المشروع من أساسه - فتركتها في السوق المالي. وفاقية ما أمضى في هذا السبيل أن يتبع رجال المال بأن مشروع قناة السويس مشروع عملي صالح للتنفيذ، وكان صلاحه في ذلك تقرير في قدمه مهندسان فرنسيان كان في خدمة الحكومة انصرية يثبت ذلك. ولكن هذا التقرير كان بحاجة إلى دعم من هيئة أوسع نطاقاً. فعملت في سنة ١٨٥٥ لجنة دولية (من كبار المهندسين الاوربيين) بما في ذلك الإنكليز) وفي السنة التالية تقدمت اللجنة إلى جناب والي مصر بتقريرها الذي جاء فيه - «ان حفر قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر يجب ان يتخذ أقصر طريق من السويس إلى بلزيوم (حيث تقوم بور سعيد الآن) والقيام بهذا الأمر ميسور ومجابه مضمون:

وكان من أزدك ان أصدرتولي نظاماً جديداً مفصلاً لمشروع قناة السويس. وأنشئت الشركة، وكان عدد الأسهم ٤٠٠,٠٠٠، فمن كل سهم خمسة فرانك، على ان يكون مركزها الاسكندرية وان تكون باريس مركزاً إدارياً وقضائياً طاً
ولتردد لسبس تقرير اللجنة في الأسواق المالية وخصوصاً في لندن. وبيع من الأسهم عدد كبير في فرنسا وجرانها. وبديء بالعمل في سنة ١٨٥٩

كذلك ان تصب في ان النفقات كبيرة جداً. ولكن نابليون الثالث تقدم قبل فوات الأوان ودعم المشروع رسمياً، واستؤنف العمل بنشاط وحماس كبيرين. ووصفت مياه البحر المتوسط بحيرة التماسح في ١٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٦١. وتلقي المشروع صدمة مؤقته سنة ١٨٦٣ ما تروى محمد سعيد باشا - فكان خلفه الخديوي سعيد، اعترف إلى تحقيق المشروع

على ان الحكومة الفرنسية لم تكن قد وافقت على الامتياز بعد. وكانت الحكومة البريطانية لاتزال تتعاون احداث. ومن ثم قامت صعوبات جديدة، حدثت تدهور الامرطور نابليون الثالث الذي قرر ان يحكم في الخلف فأصدر قراراً قبله الجميع. ومسحت الحكومة العثمانية موافقتها سنة ١٨٦٦. ولذلك فقدت بريطانيا آخر سلاح كان يهدد صد مشروع قناة السويس. فسار العمل بحماسة شديدة وبعين يافعة وبعناه نابليون الثالث. فتم اتصال مياه البحرين في البحيرة المرة في صيف ١٨٦٩. واحتفل بفتح قناة السويس رسمياً في تلك السنة

وليس يستطيع أن يتصور قيمة قناة السويس التجارية تماماً ، إلا من أتاحت له الفرصة أن يسير في القطار بين بورسعيد والاسماعيلية مثلاً ، عمادياً هذه الطريق المائية التي تصل الصحراء وتصل البحرين ، ويرى السفن تجري في نداء الهاديء سيراً وتبدأ ، أو من منحت له فرصة الدخول أو الخروج بحراً من ميناء بورسعيد ، ليرى البواخر وحركتها في هذا البناء المائي . إن وقفة على آخر السد الذي يعين نهاية القناة ، تحت تمثال ده لسيهه يتبع فيها المرء طرفه بأمواج البحر المتوسط تداعبها شمس المغرب أو شمس الشروق ، كافية لأن تقنع المرء بمكانة المشروع الذي بدأه وحققه رجل واحد ، كل رأساله إيمان قروي وجنان ثابت ومرطبان ما اعترفت الحكومة الانكليزية بفضل ده لسيهه . فقد كتب اليه وزير خارجيتها بعيد الاحتفال كتاباً يقول فيه : « إن الاحتفال العظيم بافتتاح قناة السويس قد أطلع صدور الكثيرين منا ، وأناقي وأنيق بأنني أنوب عن جميع مواطني في تهشك انت والحكومة الفرنسية والامة من وراثتها على هذا النجاح الذي يساوي ما بذلت من الجهد في سبيل التغلب على الصعوبات العديدة التي اعترضتكم . إن حكومة جلالة الملكة « فكتوريا » تهشك على هذا الطريق الجديد الذي شققته لربط الشرق بالغرب ، وخصوصاً لما له من الفثرة التجارية والسياسية في علاقاتنا مع البلدان المختلفة »

لأن افتتاح طريق السويس الجديدة أثار في نفس الحكومة البريطانية الرغبة القوية في إنشاء خط حديدي بين الاسكندرية والبصرة . لكن الامور جرت على غير ما كان يأمل الكثيرون فان الخديو اسماعيل اشتدت حاجته الى المال ، فتقدم بعرض حصة الحكومة المصرية في اسهم قناة السويس . وتقدمت بريطانيا الى الشراء وكان ذلك في سنة ١٨٧٥ وبذلك أصبحت الحكومة البريطانية شريكاً أساسياً في بناء السويس ، فاستأجرها ما يري في ١٢١٠٠٠٠ سهم من اصل ٤٠٠٠٠٠٠ سهم (حصة فرنسا تزيد عن نصف مجموع الاسهم قليلاً) ولما ضمت الحكومة البريطانية هذه الحصة الكبيرة في طريق الهند الجديدة عدلت عن الاهتمام بمد سكة حديدية من الاسكندرية الى بغداد وخليج فارس

وفي السنة ١٨٨٢ دخلت الجيوش البريطانية الاسكندرية ، ثم زحفت على القاهرة واحتلتها . وقبل انتهاء القرن استردت حملة مصرية بريطانية السودان بعد اخلائه على أثر قيام المهدي . وكان هذا الاحتلال البريطاني ، نتيجة لاضطراب شؤون مصر المالية من جهة ونتيجة لقيام الثورة الدراوية التي اتخذت حجة من جهة أخرى في هذه السنة بدأت العلاقات العسكرية بين بريطانيا والشرق العربي

على ان القرن التاسع عشر شهد أمراً آخر كان كبير الأثر في حياته السياسية ذلك هو اهتمام ألمانيا بشؤونهم . وقد كان اتبعهم فلبوم الثاني امبراطور ألمانيا صاحب هذه الفكرة

تقد كان رأيه الذي شارته نهب مستشاروه الاقتصاديون ، أنه يسترب من الدولة العثمانية ويجس منها قوة مصنوعات بلاده ومستلزمات رؤوس الأموال الألمانية ، فاذبح له ذلك استطاع الاستيلاء على تركيا وأملأها دفعة واحدة ، بعد اقتطاع أجزاء صغيرة منها ، كما فعل غسريد . لذلك لم تطلب ألمانيا من السلطان امتيازات ميساسية قد تمنح شعوره ولكنها تظاهرت بوضع جميع مصادر الثروة التي لديها تحت تصرفه وتصرف رجال حكومته . ومهد ذلك للإمبراطور زيارته الأولى لعبد الحميد في استانبول سنة ١٨٨٩ ثم أتبعها زيارة ثانية بعد سنوات ، وفي هذه المرة زار سوريا وفلسطين ، وأهل القدس يعرفون الثغرة الخاصة في السور ، قرب باب الخليل ، التي فتحت خصيصاً ليزورها الإمبراطور . وفي هذه الزيارة وضع غليوم أكليلاً على قبر صلاح الدين في دمشق ، وألقى خطاباً قال فيه (أن الثلاثمائة مليون مسلم المنتشرين في أنحاء الشرق ، والذين يدينون لجلالة السلطان عبد الحميد بالخلافة يمكنهم أن يضرخوا إلى أن إمبراطور ألمانيا صديقهم . ونشطت الدعاية الألمانية في الشرق ، وأعطى الإمبراطور الألمان المقيمين بسلطين أهبات الطائفة ليتمكنوا من شراء الأراضي وتثبيت أقدامهم في البلاد . ومن طريف ما وصل إلينا من الدعاية الألمانية للتأثير في عقول سكان الأناضول ما رواه مبشر في سنة ١٩٠٥ للاستاذ ديفيز : قال « سمعت طناً من علماء الدين يقول جماعة من السكان في قرية من قرى الأناضول : ان الفروق بين اندهب الفرزي البروتستانتي وبين الاسلام قليلة وغير أساسية ، وان غليوم الثاني يدين تقريباً بنفس الدين الذي يعتقه جلالة الياشاه في استانبول »

وليس من شك في ان الدعاية الألمانية ظهرت قوتها في فوز الحكومة الألمانية سنة ١٩٠٢ بامتياز مد سكة حديد بغداد ، لنصل استانبول بالخليج الفارسي . وعندها بدأ دور جديد في النزاع السياسي الاقتصادي بين الدول الأوروبية في الشرق العربي . فن مد سكة حديد بغداد على الطريقة الألمانية يختلف عن جميع المشروعات التي سبقته . فقد كانت المشروعات السابقة تقصد إلى تعاضد التجارة وتنصير الطرق ، ولذلك اهتمت برصا الموانئ السورية بالخليج الفارسي . وكانت تؤيدها شركات خصوصية . أما سكة حديد بغداد فقد كانت مشروعاً حكومياً من حبة ، ومن جهة أخرى كانت لها ناية عسكرية ، لذلك اعني بطريق استانبول بغداد اعتناء خاصاً ، كما ان الخط الذي وضعها المهندسون تجنّبوا نهباً تقرب الخط من شواطئ البحر المتوسط . ولو كان ذلك مصادراً للدعاية التجارية . وكانت سنة ١٩١٤ نشبت الحرب الكبرى . وفضة الشرق العربي بعد الحرب الكبرى معروفة لدى القراء الكرام